بَلاَغَـةُ البِنْيَـة النَّحْويّةِ وَالصَّرْفِيّة فِي التَّعْبير القُرْآنـي

أ. فاتح مرزوق.

ب. جامعة مولود معمريّ، تيزي–وزّو

ملخّص:

تناول هذا البحث جانبا مهمّاً في بلاغةِ التّعبيرِ القُرآنيّ من جانبين أساسين علمِ النّحو الصّرف، وبخاصّة ما تعلّق بالبُنى الّتي تسهم في بيان سبك وحبك النّظم القرآنيّ، هذا النّظم الّذي عجز العرب أن يأتوا بمثله؛ سواء تعلّق الأمر بالبُنى الإعرابيّة أم البنى الصّرفية، وهنا مكمن سرّ بلاغة التّعبير البياني في النّص القرآنيّ.

الكلمات المفتاحية: البنية، بلاغة، التّعبير، النّحو، الصّرف، النّظم.

الدّراسات القرآنيّةَ شغلت حيّزًا كبيرًا في الدّراسات اللّغوية والنّحويّة قديمًا وحديثًا؛ إذ انطلق الباحثون والعلماء من وجهة نظر شرعيّة دينيّة لفهم النّص القرآنيّ من كلّ جوانبه الشّرعيّة وخصائصه الأسلوبيّة البيانيّة الجماليّة، وهذا لا يتأتّى إلاّ بالتّبحّر في علوم العربيّة. والوقوف على العناصر والبُنى الّتي تألّف منها البناء والهيكل، من بنية نحويّة وصرفيّة، وبخاصة في المفردة القرآنيّة وبلاغتها، إيماناً منّا بأنّ القرآن معجزٌ بألفاظه ومعانيه؛ أيْ: أنّ أيَّ حرف رُسِم في القرآن إلاّ وله دلالة بليغة ومقصد مرجوّ. والواقع أنّ البحث اللّغويّ القرآنيّ يتّسم، ويَمِيزُ بميزات لا يتّسم بها سواه من نصوص اللّغة العربيّة الّتي يمكن درسها في يوم أو في لمح البصر؛ كون أنّ القرآن الكريم صالح لكلّ زمان ومكان، أضف إلى أنّه معجز بألفاظه ومعانيه، ومن قدرة المولى عزّ وجلّ أنّ في كلّ عصر يظهر رجالاتٌ من العلماء مَنْ يخدم هذه اللّغة؛ فهي محفوظة بحفظ كتابها كتاب الله. وممّا لا ريب فيه أنّ لغة القرآن الكريم هي أسمى لغة؛ لغةٌ أبهرت فطاحلة شعرائها، ولُدَدَ فصحائها، ولُسَن بلغائها؛ بدليل أنّ نحارير الشّعراء صَرَفُوا أنفسهم عن نَظْم الشّعر بعد نزول القرآن الكريم، وهذا دافع يجعل من اللّغة العربيّة لغةً متشنّفة على أَوْجها في ذلكم الزّمان وحتّى الآن. فما من لفظة في القرآن

إلاّ وأخذت موضعها بدقّة متناهية عجيبة. بحيث لا تصدق إلاّ هناك. والحقيق بالذّكر أنّ القرآن امتاز بأسلوب محكم؛ حتّى إنّ فصحاء العرب ومصاقعهم ما اسْطَاعُوا أن يأتوا بمثله ولو بآية؛ فهو كتاب نُظِم بأروع أسلوب، وأتقن أحسن إتقان وسُبِك بأنصع تركيب، وبُنِي بناءً محكماً دوّخ عرب العالمين قاطبة؛ حتّى أخذ بهم الأمر لأن يقول قائل منهم:"...والله إن عليه لحلاوة وإنّ له لطلاوة وإنّ أعلاه لمثمر، وإنّ أسفله لمغدق" هي شهادة للقرآن على قوّة بنيته النّحويّة والصّوتيّة، والدّلاليّة والصّرفيّة. من هذا المنطلق نروم الإجابةَ عن الإشكال الآتي: كَيف أسهمت البُنى النّحويّة والصّرفيّة سَبْك وَحَبْك بيان إعجاز التّعبير القرآنيّ؟ ما هو المنهج المتبّع لفهم بلاغة التَّعبير القرآنيّ البيانيّ؟

1. **مفهوم البلاغة:** حري بنا أن نشرع بتعريف البلاغة بشكل يسير؛ كونها المفتاح الرّئيس لمعرفة بنيان البلاغة القرآنية من حيث تعبيرُها البياني.

1.1. **البلاغة في اللّغة** هي: البلوغ والانتهاء، نقول: بلغت الشّيء أي: وصلت غليه وانتهيت، وبلّغ الركبُ المدينةَ :إذا انتهى إليها، ومبلغ الشيء ومنتهاه[1]. يتضح أنّ البلاغة في معناها اللغوي بلوغ الشّيء و الانتهاء إليه.

2.1. أمَّا في **الاصطلاح** فقد عرفها القزويني بقوله: "مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته"[2]. من خلال التّعريفين اللّغويّ والاصطلاحيّ نتوصّل لتعريف البلاغة القرآنيّة؛ إذ هيّ: تلك الأسرار الجماليّة والمقاصد البيانيّة الّتي سبكت وحبكت النّظم القرآنيّ؛ ممّا جعله يتفرّد بأسلوب رصين محكم في عباراته. فحار العرب في نظمه وطريقة ترتيبه. ومن ثمّ نخلص إلى أنّ الوظيفة الرّئيسة لمعنى البلاغة وهي: التّبليغ؛ أيْ: إيصال الكلام المقصود والمنشود ومنه ينتج عندنا:

البلاغة = بلاغ ⟵ إبلاغ ⟵ تبليغ= ميزة بلاغة القرآن.

2. مفهوم التَّعبْير القُرْآنِيّ: والمقصود به الطّريقة والنّسق الّذي تشكّل به النّص القرآنيّ من حيث نظمُه المحكم، وتركيبه الرّصين، سواء تعلّق الأمر في بنيته النحويّة

والصّرفيّة والدّلاليّة والصّوتيّة. فهو قول معجز بلفظه ومعناه. أو هو"الأسلوب الّذي انفرد به هذا الكتاب الرّبانيّ العظيم، الّذي هو كلام الله سبحانه وتعالى، هذا الأسلوب لم يكن مناط تفرّده بأنّه جاء على غير ما اعتادت العرب في كلامها؛ بل إنّ القرآن الكريم جاء على ما اعتادت العرب في أساليب الكلام المختلفة، غير أنّه؛ أي: الأسلوب القرآنيّ اختلف عن طريقة العرب في كلامها وأساليبها بأنْ جاء معجزًا في طريقة نظمه للكلام ومن هنا كان أسلوب القرآن الكريم متميّزًا"[3]. ونحسب أنّ الأسلوب هو موطن التّحدّي الّذي أتى به القرآن الكريم في أكثر من موضع، فيه حيث تحدّى الله سبحانه وتعالى المشركين والعرب كافّة على أن يأتوا بمثل هذا القرآن؛ حيث قال سبحانه[**فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ**] ثم أراد الله سبحانه وتعالى أن يظهر عجز هؤلاء المتقوّلين على النّبي الكريم فبعد أن عجزوا عن الإتيان بكتاب يشبه القرآن الكريم في طريقة نظمه؛ أعجزهم الله بعشر سور، فلمّا عجزوا عن الإتيان بعشر سور من مثل سور القرآن، تحدّاهم الله سبحانه بسورة واحدة، وذلك كي يبيّن الله سبحانه وتعالى عجز هؤلاء المفترين، وعدم مقدرته؛ حتّى على المجيء بسورة واحدة من مثل سور القرآن، يقول الله سبحانه وتعالى: **[أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ]** يونس: ٣٨ فهذا التّحدّيّ لا يتعلّق فقط بالمجيء بكلام أدبيّ فنّيّ منظوم أو منثور.

3. **خَصَائص المُفْرَدَة القُرْآنيّة وَعلاَقَتُهَا بالتَّعْبير القُرْآنيّ:** لا يخفى على أيّ خاف أن القرآن الكريم أعجز العرب قاطبة فصحاءها وأشداءها، وهذا الإعجاز مرّ بمراحل بآية فسورة وهكذا وهذا دليل على أنّ القرآن سبك بأسلوب عجيب جعل العرب حائرة فيه وهو أولوا بلاغة وفصاحة وبيان. ولعلّ المتتبّع لبلاغة التّعبير القرآنيّ ليجد أنّ المفردة في تركيبها موضوعة في موضعها الأصليّ بحيث لا يمكن لها بحال أن تكون في موضع آخر، وهذه هي سمة المفردة القرآنيّة؛ لذا نجد أسلوب القرآن يَمِيز بأسلوب مفصّل تفصيلا، فالمفردة القرآنيّة تتّسم بخصائصَ ذات سعة قد لا تتسعُ لمفردة أخرى

عند أسلوب شاعر أو كاتب آخر؛ لكن قد لا تجتمع كلّها في نظم واحد إلاّ في نصّ أعجز العرب قاطبة جَهابذتهم وفَطَاحلة ونَحَارير البلاغة فما اسْطَاعوا له مُضيّا؛ فانظر إلى قوله تعالى: [**وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ**] التّكوير: [الآية 17. 18] ما أروع هذه الآية؛ فقد تشمّ فيها رائحة المعنى الجليّ والصّورة محسوسة مجسّمة دُونَما الرّجوع إلى معجم معين، فقد لا تستطيع أنّ تصوّر إقبال اللّيل وتمدّده بالظّلام الحالك إلاّ إذا استعملت هذه الكلمة المرهفة في الحسّ الدّقيقة في المعنى كلمة "عسعس"، وقس عليها كلمة "تنفّس"؛ إذاً فاللّفظة القرآنيّة تجتمع فيها المعاني الثّلاث السّالفة في تركيبٍ قرآنيٍّ دون غيره من التّراكيب العاديّة في كلام العرب؛ وذلك لما تحمله من نَفَس إعجازيّ ووحيّ ربانيّ، فهو الّذي خلق السّموات والأرض والجنّ والإنس والوجود، وما قبله وبعده ففصّله تفصيلا وقدّره تقديرا. يظهر من خلال تركيب النّظم القرآنيّ، وما يَنْمَاز به من خصائصَ تركيبيةٍ وبنائيةٍ أنّه انفرد ببسمات جعل العربَ الأقحاحَ ينبهرون في نظمه، ويعجزون عن الإتيان بمثله؛ ولعلَّ دليل ذلك التّحدّي القائم بين كفّار قريش والنبيِّ المرسلِ محمّدٍ رسولِ الله – صلّى الله عليه وسلم– فهم ما اسْطَاعوا أن يأتوا بمثله يقول تعالى: [**أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ** (33) **فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ**]الطور:[الآية ٣٣ – ٣٤].

4. **مَنْهَجُ ثُلاَثيّة النَّحْو البَلاَغي وَالتَّعْبير البَيَاني وَالإعجَاز:** وأقصد به أنَّ العلماء الأوّلون انطلقوا من منهج علميّ دقيق لاكتشاف أسرار بلاغة التّعبير القرآنيّ من خلال مباحث البلاغة في تعبيره وصولا للإعجاز؛ لأنّه لولا آليات النّحو البلاغيّ لما كشف قناع إعجاز التّعبير القرآنيّ؛ أي: منهجهم كان معتمدا على آليات النّحو والبلاغة أضف إلى مراعاة السياق وظروف الحال.

1.4. مُرَاعَاةُ جَانب النَّحْوِ البَلاَغيّ/ النظّم: تعدّ قضيّة النّحو البلاغيّ من القضايا الّتي أثبتت مكانة النّص القرآنيّ من حيث بيانُه وحبكه وسبكُه؛ إذ جمع بين شيئين اثنين: النّحوِ والبلاغة، والمقصود به بلاغة ودلالة الحركات الإعرابيّة؛ أو

يعرف بـ(النّظم) هي المصطلح الّذي تنبّه إليه إمام البلاغة عبدُ القاهر الجرجاني في كتابه (دلائل الإعجاز)؛ حيث ربط العلاّمة الجرجاني بين الحركات الإعرابيّة وما تؤدّيه من دلائل داخل السّياق الكلاميّ منطلقا في ذلك من أهمية ووظيفة النّحو الّذي هو عمدة بلاغة القرآن؛ حيث يقول:"تعليق الكلم بعضها ببعض، وجعل بعضها بسبب من ببعض..."[4]، أو هو "توخي معاني النّحو وأحكامه ووجوهه فيما بين معاني الكلم؛ أيْ أن تضع كلامك الوضع الّذي يقتضيه علم النّحو وتعمل على قوانينه وأصوله وتعرف مناهجه الّتي نهجت فلا تزيغ عنها"[5].يظهر من خلال قول الجرجاني أنّ النّظم هو الّذي يبرز مكانة وبلاغة الخطاب وفي القرآن خاصّة، فلولا النّظم لما عُرف القول البليغ والفصيح من دون ذلك، وهنا مكمن الإعجاز التّعبير القرآنيّ في طريقة نظمه ورصانة لفظه، وهذا ما دلّ عليه الباقلانيّ بقوله:" فأمّا شأو نظم القرآن فليس له مثال يحتذى عليه، ولا إمام يقتدى به ولا يصحّ وقوع مثله اتفاقا كما يتفق للشاعر البيت النّادر والكلمة الشّاردة والمعنى الفذّ الغريب والشّيء القليل العجيب "[6]. ويقول أيضا: "وقد تأمّلنا نظم القرآن، فوجدنا جميع ما يتصرّف فيه من الوجوه الّتي قدّمنا ذكرها، على حدٍّ واحد، في حسن النّظم وبديع التّأليف والصّرف"[7]. الأساس فيه هو حسن النّظم.

2.4. **مُرَاعَاة السّياق القُرْآنـي/ المقام:** من المناهج الّتي ركّز عليها العلماء لبيان بلاغة النّص القرآنيّ مراعاة السّياق القرآنيّ؛ كون أنّ السّياق يبرز مكانة رفعة النّص القرآنيّ في أسلوبه الرّصين؛ فقد يسأل سائل ما غرض السّياق في بيان رفعة التّعبير القرآنيّ، فنقول: إنّ السّياق يدلّ على أنّ التّركيب يصدق في ذلك الموضع دون غيره من المواضع؛ فسياق الحال له دلالة، على أنّ البليغ يملك ناصية اللّغة، وهذا ما جعل العرب يحارون في تركيبه ونظمه كون القرآن يتنزل بحسب الظّروف والأحوال، وهنا تكمن بلاغة التّعبير القرآنيّ؛ لأنّ السّياق ينطلق من مجموعة من القرائن اللّغويّة الّتي تبيّن بلاغة النّص القرآنيّ؛ لذا عُني به علماء اللّغة والتّفسير

خاصّة. إذًا المعنى مهمّ في تحديد جانب السّياق اللّغويّ؛ فنحن دائما نُنْكس دراستِنا إلى فهم السّياق؛ وبخاصة في القرآن الكريم؛ فأنت لا تستطيع أن تحكم على آية قرآنيّة إلاّ إذا حدّدت سياقها الّذي وردت فيه، والظّروف الّتي نزلت فيه هذه الآية ولنا أمثلة كثيرة من ذلك كقوله تعالى: [عَبَسَ وَتَوَلَّى] [عبس: ١]. فالمتمعّن في هذه الآية يجد أن الفعل(عبَس) لم يرد بالتّضعيف؛ أي عبّس) لأنّ النّبيّ صلى الله عليه وسلم نظر في عبد الله بن مكتوم بطرف العين؛ ولو نظر إليه بالعين كلّها لنزلت(عبّس) ؛ ومثله قوله تعالى: [وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ] الأعراف:[الآية١٣٢] فأنت إذا أمعنت النّظر وأجللت التّدبر ستجد أنّ الوَحْدات اللّغويّة لها علاقة في ما بينها فقد استعملت(مهما) والّتي تدلّ على الإصرار عكس(حيثما، كيفما) أضف إلى أنّ هذا الفعل أتى بعده فعل (تأتنا) والّذي يدلّ على الاستمراريّة في الإصرار على التّعنّت، ثم العجب العجاب من ذلك أن تُدْعَم بجملة اسميّة (فما نحن) والّتي تدلّ على الثّبوت في الإصرار، وعدم الإيمان بما جاء به محمد –صلى الله عليه وسلّم– ويختمها (بالباء الزائدة) والّتي تدلّ على تأكيد الإصرار، وعلى عدم الإيمان بالرّسول صلى الله عليه وسلم وحده لأنّهم قالوا: "لك".

5. **بَلاَغَةُ البنْيَة النَّحْويَّة في التَّعْبير القُرْآنيّ:** ويقصد بها التَّناسق الّذي يربط أجزاء الجملة في تركيبها ونظمها؛ بحيث تمتاز عن التّراكيب الأخرى بطريقة الإحكام والحبك، والبنية النّحويّة تشمل أركان ومباحث كبرى، منها: التّقديم والتّأخير والحذف، الاسم والفعل والنصب وهلمّ جرى.

1.5. بلاَغَةُ التَّقْديم وَالتّأْخير: مبحث التّقديم والتّأخير من المباحث الجليلة الّتي أبانت بلاغة شرف التّعبير القرآنيّ؛ كونه يأخذ جانبا مهمّا في التّركيب، ولا يستعمله إلا أولوا النهى،؛ لذا فإنّ وروده في القرآن الكريم زاده بسطة في الاعجاز؛ ممّا جعل العرب يعجزون بالاتيان بمثله. ومن الجوانب التي ورد فيها التّقديم والتّأخير في القرآن الكريم، نجد الجار والمجرور، ومثله قال[يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ

وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِير] التغابن:[الآية١] قدّم الظّرفان ليدلّ بتقديمهما على معنى الاختصاص الملك والحمد بالله عزّ وجلّ لا بغيره[8]، لكن نقول إنّ قوله:"الملك له ينفي ملكه، وحمده معاد الله؛ ولكنِ التّقديم يدلّ على التّوسيع في المعنى حتّى لا يشكّ شاكٌّ ولا يظنّ أيّ ظانٌّ. ولا بأس بأن أشير إلى أنّ هذا النّوع من التّقديم – بغرضه الاختصاصيّ– ليس بدْعا على الجملة الاسميّة فحسب؛ بل إنّه كذلك في الجملة الفعليّة يقول محمد بن عبد الله الزركشي:" لا تختصّ إفادة الحصر بتقديم الضّمير المبتدأ؛ بل هو كذلك إذا تقدّم الفاعل أو المفعول أو الجار والمجرور المتعلّقات بالفعل"[9].اللّهم إذا كان الكلام قد سبق بنفي فإنّ الظّرف قد يتأخّر؛ وهذا النّوع يكثر في نصوص التّنزيل الرباني لقوله تعالى [ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ] البقرة:[الآية ٢]. فالظّاهر في الآية هو تقديم الرّيب وتأخير الظّرف، وهنا نشير على أنّ النّفي منوط بالقرآن؛ لأنّه لا يحوي ريبا في محتواه؛ أيْ نفي (الرّيب) في المذكور، وهو القرآن الكريم؛ أمّا قوله تعالى: [لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُون] الصافات: [الآية٤٧] فإنّ المتأمّل للآية يجد تقديم الظّرف(فيها) دون الآية السّابقة فههنا نفي المذكور لإثبات غيره. فالخمر في الواقع أنّها تسكر وتذهب العقل؛ لكن خمر الجنّة عكس ذلك. ومن الّذين تنبّهوا لهذا الزّركشيّ حين قال:"وأمّا تقديم الظّرف، ففيه تفصيلٌ فإن كان في الإثبات دلّ على الاختصاص كقوله تعالى: [ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ] الغاشية:[الآية٢٦] وإن كان في النّفي فإنّ تقديمه يفيد تفضيل المنفيّ عنه كما في قوله تعالى: [لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُون] الصافات:[الآية٤٧][10] فالمتمعّن جيّدا يستدرك ذلك، فأنا إذا قلت:(عندك علمٌ) فقد خصّصت لك العلم؛ أمّا وإن قلت لك:(لا عندك علم) أصبحت الجملة تحمل معنى الذّم؛ فالتّركيب دقيق ومعناه أدقّ من ذلك بكثير جدّا.

2.5. **بَلاَغَةُ النَّصْب في التَّعْبير القُرْآنيّ:** والمقصود ها هنا أنّ حركة النّصب المعروفة في النّحو العربيّ لها دلالة جليّة؛ بحيث تكشف لنا قناع المعنى، سواء تعلّق

الأمر بتقديم المفعول بع عن الفاعل أم ما يعرف بباب الاشتغال في النّحو العربيّ وهو مسلك عظيم في النّص القرآنيّ؛ لأنّه ورد في كم من موضع لأغراض بلاغيّة يرتضيها التّعبير القرآنيّ. لذا سأرد بعض النّماذج القرآنيّة:[**وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ**] [البقرة: ١٧٧] والشّاهد في هذه الآية في كلمة (الصابرين) حيث قرئت بالنّصب وقرئت بالرّفع (الصّابرون) وهي دلالة على أنّها معطوفة على كلمة [الموفون]؛ أمّا قراءتها بالنّصب فهي على المدح؛ أيْ: منصوبة على المدح، ومن ثمّة الدّلالة ستتغيّر لا محالة، فالحركة الإعرابيّة الفرعيّة دلّت على المعنى المقصود من الآية، وهذا ما صرّح به الزّمخشري في بيان بلاغة النصب؛ حيث يقول:"إظهارا لفضل لصبر في الشّدائد ومواطن القتال على سائر الأعمال"[11].

6. بلَاَغَةُ البنيْة الصَّرْفِيَّة في التَّعْبير القُرْآنيّ: يقصد بالبنية الصّرفيّة تلك البنية الّتي تهتمّ بالشّكل الخارجيّ للمفردة من حيث بينتُها، سواء تعلّق الأمر بالمشتقّات كاسم الفاعل واسم المفعول أم الجموع مثل: جمع التّكسير صيغ منتهى الجموع، جموع القلّة أو دلالة الفعل والاسم وسآخذ نماذجَ أبيّن فيها جمالية البنية الصّرفيّة:

1.6. بَلاَغَةُ الاسْم وَالفعْل: تبنى العربيّة منهجها التّركيبيّ التّراتبيّ على ركن أساس وهو ركن الاسم والفعل، وهذان العنصران هما عمدتا الجملة العربيّة سواء في اسميتها أم فعليتها من حيث التّركيب وحتّى الدّلالة، يقول اللّغويّون: إنّ الاسم يفيد الثّبوت والفعل يفيد التّجدّد والحدوث، وسرّ ذلك أنّ الفعل مقيّد بزمن؛ فالفعل الماضي مقيّد بزمن الماضي والمضارع مقيّد بالحاضر أو المستقبل؛ أمّا الاسم غير مقيّد بزمن من الأزمنة؛ فهو أشمل وأعمّ. جاء في الإيضاح: "وأمّا كونه يعني مسنداً فعلاً فلتقييد بأحد الأزمنة الثّلاثة على أخصر ما يكون مع إفادة التّجدّد، وأمّا كونه اسماً فلإفادة عدم التّقييد والتّجدّد"[12]. وقد صرّح بذلك عبد القاهر الجرجانيّ حين قال: "إنّ موضوع الاسم على أن يتثبت به المعنى للشّيء من غير أن يقتضي تجدده شيئاً بعد شيء، وأمّا

الفعل فموضوعه على أن يقتضي تجدّد المعنى المثبت به شيئا بعد شيء"[13]؛ فيدل من خلال قول الجرجانيّ أنّ الاسم يدلّ على الثّبوت والفعل يدلّ على التّجدّد، وهو ما نلمسه في التّعبير القرآنيّ، في قوله تعالى: [**وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ**] [الأعراف: ١٩٣] ففرق بين طرفي التّسوية فقال: "أدعوتموهم" بالفعل ثمّ قال" أم أنتم صامتون" بالاسم ولم يسوِّ بينهما فلم يقل: " أدعوتموهم أم صمتم" ومُفاد ذلك أنّ حالة الإنسان ثابتة في الصّمت، وإنّما يتكلّم لسبب يعرض له؛ لأنّ لو رأيت إنساناً يكلّم نفسه لا تهمته في عقله، أيْ: أنّكم: أحدثتم لهم الدعاء أم بقيتم على حالكم من الصّمت[14].

2.6. بَلاَغَةُ صيَغ المُبَالَغَة: إنّ في العربيّة أوزاناً عديدةً يُؤْتَى بها للمبالغة في الشّيء المراد: كفعّال مثل: غفّار، ومفعال مثل: معطاء و فَعُول مثل: غفور، وفَعِل مثل: حَذِر، والسّؤال المطروح هل تدلّ هذه الصّيغ على معنى واحد؟ أم أنّ ثمّة فرقاً بين(غفّار وغفور)، و(صبّار وصبور) و(همّاز وهموز وهُمزَة).

ممّا لا ريب فيه وشك أنّ القرآن الكريم قد أتى بصيغ مختلفة في مواطنَ متعدّدة، ممّا يدلّ على أنّ الصّيغ كلّ لها دلالاتها المنوطة لها. كقوله تعالى: [**وَإِنِّي لَغَفَّار**] [طه: ٨٢] ﷺ [إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ]البقرة:١٧٣، وفي هذا الموضع يقول أبو هلال العسكري:" فأمّا في لغة واحدة فمحال أنْ يختلف اللّفظان والمعنى واحد كما ظنّ كثيرٌ من النّحويّين واللّغويّين"[15]. ومن الشّيء المعلوم أنّ العرب تنسب إلى الحرف و الصّنعة بصيغة(فعّال) غالباً كالفرّاء والخبّاز والنّجّار والورّاق والخزّاف، وفي هذا يقول ابن يعيش: "وإن كان شيء من هذه الأشياء صنعة ومعاشا يداومها صاحبها نُسب على "فعّال "فيقال لمن يبيع اللّبن والتّمر: لبّان وتمّار ولمن يرمي بالنّبل نبال"[16].

جاء في تفسير الرّازي في قوله تعالى: [**إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا**] [نوح: ١٠] فكأن هذا حرفته وصناعته[17]، وعلى هذا فصيغة(فعال) تدلّ على الحرفة والصناعة، وتقتضي الاستمرار والتّكرار والإعادة والتّجدّد والمعاناة والملازمة، قال تعالى: [**كَلَّا إِنَّهَا**

لَظَى(15)نَزَّاعَةً لِلشَّوَى] [المعارج: ١٥ – ١٦] جاء بها على وزن (فعّال) ولم يقل (نزوعا) لأنّها تفيد الاستمراريّة والتّجديد والإعادة وهو موافق لما ورد في قوله تعالى: [إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا] [النساء: ٥٦] ومثله في قوله تعالى [وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ] [القيامة: ٢] فقد فسّر الرّازي هذه الآية بقوله:" واعلم أنّ قوله: لوامة ينبئ عن التّكرار والإعادة، وكذا القول في لوام وغدار وضرار؛ أي: أنّها تحدث لوما كلّما أحدث صاحبها فعلا يوجب اللّوم، وورد كذلك في الكشّاف: (الأواب) وهو التّواب الكثير الرّجوع إلى الله وطلب مرضاته ومن عادته أن يكثر ذكر الله ويديم تسبيحه وتقديسه"[18]. دليل على أنّ الزيادة في المبنى زيادة في المعنى.

3.6. بَلاَغَة الجُمُوع: الجموع في العربيّة على نوعين: جمع سالم وجمع تكسير.

وجمع التّكسير له أوزان كثيرة بلغت سبعة وسبعين وزناً، وقد يكون للاسم الواحد كم من وزن. وقد ذهب النّحاة إلى تفسير هذا الاختلاف إلى أسباب عديدة، منها ما هو متعلّق بلغات العرب ومنها ما هو متعلّق باختلاف المعاني، ومنها ما ارتبط بدلالة القلّة والكثرة، ومن أمثلة القلّة (أَفعُل) كأشهر، و(أَفعال) كأحمال، (أَفعِلة) كأغربة و(فِعلة) كفِتية وقد أضاف الفرّاء واحدة وهي (فَعَلة) كقولهم:(هم أَكَلة رأس) أيْ: قليلون يكفيهم ويشبهم رأس واحد، وقيل: ليس بشيء؛ إذ القلة مفهومة من قرينة شبعهم بأكل رأس واحد لا من إطلاق فعلة"[19].كما أنّ الجمع السّالم يفيد بنوعيه يفيد القلّة. والتّكسير يفيد الكثرة والمراد بالقلة؛ أيْ: من ثلاثة إلى عشرة، وما زاد عن ذلك؛ فهو من باب جموع الكثرة ليس إلاّ. فيقال: أربعة أحرف وخمسة أحرف؛ فإذا أردت ما يزيد عن العشرة فقل: حروفا. كما يقال: خمسة فتية، فإذا أردت زدت فوق العشرة فقل: فِتيان.]وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ [ومثله في قوله تعالى: [آل] هذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِين **[[آلعمران: ١٢٤]، وقال:** أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ [عمران: ١٢٥] فاستعمل آلاف للقلة، وقال

[البقرة: ٢٤٣]، فدلّ قوله ألوف على أنّهم زادوا عن عشرة ألاف]**أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْت وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا** [فاستعمل الأفعال للقلة، و فُعُول للكثرة .وقال: [لقمان: ٢٧] فاستعمل(الأَفْعُل) للدّلالة على]**نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** [الانفطار: ٣] فاستعمل] **وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ** [القلّة، وقال في موضع آخر: إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ [البحار للدّلالة على الكثرة؛ لأنّ البحار جميعها تتفجر، وقال أيضا **إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى** [آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًىچالكهف:١٣وقال فيهم [الكهف: ١٠] فاستعمل]**الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا** (فِتية) على وزن (فِعلة) التي تدلّ على القلّة؛ لأنّ أكثر ما قيل في عدّتهم أنّهم كانوا **وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ** [سبعة، و ثامنهم كلبهم، في حين قال في سورة يوسف فدلّ على ذلك أنّهم أكثرُ من عشرة؛ إذ لا شكّ أن خدمة [يوسف: ٦٢]]**فِي رِحَالِهِمْ** العزيز الّذين يعملون على الطّعام أكثر من عشرة فاستعمل الفِتْيَة على القلّة والفتيان على الكثرة، فما أروع هذه اللّغة حين تسدل ستار نظمها وقوّة تركيبها وبيانها، وانظر معي–رحمك الله– في موضع آخرَ في تفريق بين جمع القلة والكثرة ودلالتها؛ ولنا **وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ** [مثال في قوله تعالى: **وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ** [[البقرة: ٥٨] وفي قوله تعالى:]**الْمُحْسِنِينَ** [الأعراف: ١٦١] فجاء بالأولى بجمع الكثرة، وبالثّانية]**خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ** على القلّة والقصّة واحدة، لكنّ السّياق يقتضي أن تكون الأولى بدلالة التّكثير والثّانية بدلالة القلّة؛ إذ إنّه" لمّا أضاف ذلك القول إلى نفسه فقال: "وإذ قلنا" لا جرم قرن به ما يليق بجوده وكرمه وهو غفران الذنوب الكثيرة فذكر بلفظ الجمع الدال على الكثرة، وفي الأعراف لما لم يضف ذلك إلى نفسه بل قال: "وإذ قيل" لا جرم ذكر ذلك بجمع القلّة"[20]. وآتيك بلفظ دقيق في مسلكه عجيب في نظمه، بديع في تركيبه، حين يستعمل القرآن الكريم لفظة (قعود) بالقعود الحقيقيّ مفردها (قاعد) ولفظة (قاعدين)

بمعنى القعود عن الجهاد، فقد وردت لفظة (القعود) ثلاث مرّات في القرآن كلّها بمعنى **الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ** [القعود الحقيقيّ وهي قوله تعالى: **]وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّار** [آل عمران: ١٩١] ووردت (قاعدون) في ستّة مواطن كلّها بمعنى: القعود عن الجهاد.

ونافلة القول أن المقال تناولَ جانباً أساساً ولطيفةً من لطائف التّعبير البيانيّ، وهي لطيفة **(البنية النّحويّة والصّرفيّة في التّعبير القرآنيّ)**؛ ذلك إنّ البُنى النّحويّة والصّرفيّة معرفتُها ضروريّة؛ إذ يُتَوصّل بها إلى معرفة الأحكام الشّرعيّة، بَلْهَ البيانَ الإعجازيّ؛ لأنّ القرآن عربيٌّ، ولا يعرف سرائره البيانيّة إلاّ مَنْ تضلّع في آليات هذه اللّغة؛ الثَّرةِ في تركيبها، الرّصينةِ في نظمها، البديعةِ في خيالها؛ ممّا جعلها ترقى وتسمو على اللّغات آنذاك. كيف كان ذلك؟ إنّما كان ببراعة هذا التّلوين البيانيّ من حيث البُنى النّحويّة والصّرفيّة. وبعد عَرض هذا البحث بَصُرْتُ إلى النّتائج الآتية:

- التّعبير القرآنيّ تعبير معجز في لفظه ومعناه؛
- منهج العلماء في تتبّع بلاغة الأسلوب القرآنيّ قائمٌ على مراعاة السّياقات المختلفة؛
- سرّ الإعجاز في القرآن الكريم يكمن في معرفة أسرار العربيّة وعلومها؛
- بلاغة البنية النّحويّة تكمن في معرفة مكنونها البلاغيّ؛ فالحركة الإعرابيّة يكمن إعجازها في دلالتها الخفيّة لينتج لنا ما يسمّى بـ(النّحو البلاغيّ)؛
- بلاغة التّعبير القرآنيّ سرّها طريقة نظمه وبراعة سبكه؛
- بلاغة المفردة القرآنيّة هو جمال وقعها في السّمع، اتّساقها الكامل مع المعنى، اتّساع دَلالتها لما لا تتّسع له عادة دلالات الكلمات الأخرى.

الهوامش

[1] – السيد أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، ط2. 1976، بيروت: دار الفكر، ص6–7 .

[2] – القز ويني، الإيضاح في علوم البلاغة، ط8. بيروت. دار الكتاب اللبناني: 1983،ج1، ص80.

[3] – عبابنة يحيى عطية، (أثر التحويلات الأسلوبية في تغيير الإعراب في الآيات القرآنية والشواهد الشعرية)، مجلة أبحاث اليرموك، سلسلة الآداب واللغويات، العدد الحادي عشر، 1992، مج1، ص10 .

[4]– عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تح: محمود محمد شاكر، د/ط. د/ت، القاهرة: مكتبة الخانجي، ص5.

[5]– عبد القاهر الجرجاني، المرجع السابق، ص63– 342.

[6]– الباقلاني، إعجاز القرآن، تح: أحمد صقر، د/ط. 2009، مصر: دار المعارف، ص 112.

[7]– نفسه، ص37.

[8]– جار الله الزّمخشري، الكشّاف عن حقائق غوامض التّنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التّأويل، تح: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمّد معوّض، ط1. الرّياض: 1998، مكتبة العبيكان، ج3، ص 236.

[9] – الزّركشيّ، البرهان في علوم القرآن، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، د/ط. د/ت، القاهرة: مكتبة دار التّراث، ج2. ص 414.

[10] – المرجع نفسه، ج3، ص 236.

[11] – الزمخشري، المرجع السابق، ص10.

[12] – القزويني، المرجع السابق، ج1، ص87

[13] – عبد القاهر الجرجاني، المرجع السابق، ص 133– 134

[14] – صالح فاضل السامرائي، معاني الأبنية في العربية، ط2. 2007، الأردن: دار عمار للنشر والتوزيع، ص11

[15] – أبو هلال العسكري، الفروق اللّغوية، تح: مؤسسة النشر الإسلامي، ط1. 1412هـ، قم: مؤسسة النشر الإسلاميّ، ص12– 13

[16] – ابن يعيش، شرح المفصل، د/ط. د/ت، بيروت: عالم الكتب، ج6، ص13.

[17] – الفخر الرازي، التفسير الكبير، ط1. 1992، دار الغد العربي، ج13، ص138.

[18] – الزمخشري، المرجع السابق، ج3، ص07.

[19] – الرضي الاستراباذي، شرح الكافية، تع: يوسف حسن عمر، د/ ط. 1973، ج2، ص212.

[20] – الفخر الرازي، المرجع السابق، ج3، ص 93– 93